

الدراسات النقدية العربية المعاصرة بين الواقع والمأمول

أ.د: فاطمة سعدون، جامعة محمد لمين دباغين سيطف 2 الجزائر

الملخص:

ارتبط واقع اللغة العربية بتحديات العصر، حيث كان له تأثير على اللغة، من حيث التطور، والاستخدام، وبخاصة في ظل العولمة والتطورات التكنولوجية، لذلك فإن الدراسات الأدبية واللغوية قد انتهجت سبيلا يقارب هذا التطور، إذ يسعى الدارسون إلى إدخال الأساليب التكنولوجية الحديثة في دراساتهم، من حيث الحوسبة والانفتاح التكنولوجي، شكل التطور الذي يعيشه الإنسان العربي تحديا أمام الدراسات العربية، لغوية وأدبية، ذلك أن اللغة العربية في ثنايا التطور التكنولوجي والمعرفي، تجابه تحديات عديدة، أبرزها مسابرة هذا التطور، فكان واقع هذه الدراسات وبخاصة الجامعية صورة للهاجس الذي اعترى الباحثين، وبخاصة في مجال التعليمية، إذ أصبح حال المعلم والمتعلم في ظل هذه التحديات، صورة عاكسة لواقع هذه الدراسات.

يعد التطور الذي تعايشه الدراسات العربية في ثنايا الدراسات الحديثة تطورا عاكسا لهماجس الباحثين والدارسين، وبخاصة في مجالات البحث العلمي، حيث إن الباحث يسعى إلى الاستزادة من المعارف، قصد الرقي بكفاءته العلمية والعملية، وفي إطار العملية التعليمية، يسعى كل من المعلم والمتعلم إلى إنجاح العملية التواصلية عن طريق التحصيل الجيد للمعرفة والمكتسبات.

والدراسات النقدية من أهم الدراسات التي عرفت تطورا في مجال البحث المعرفي، ذلك لارتباطها المباشر بتطورات الوضع في الفكر الغربي، حيث شكل النقد الغربي المعاصر رافدا مهما في بناء النقد العربي المعاصر، عن طريق التلاقح والتواشج، إذ كان له حضور بارز في توجيه النقد العربي وبخاصة أنه نقد يسعى إلى العلمية، ولعل أهم مقاصد النقد الحديث هو استكناه خبايا النصوص الأدبية؛ عن طريق التفاعل مع مضامينها والغوص فيها، لذا كان المنهج النقدي وسيلة هذا الفعل وطريق الناقد للبحث. وإن كان قديما يقوم على الذوقية والذاتية ويبحث في المضامين انطلاقا من جوانب خارجة عن النص، فقد أصبح الآن إجراءات موضوعية تسعى إلى نقد النص من داخله، وهذا ما لمسناه النقاد العرب في مناهج الغرب بعد الاطلاع على إنجازاتهم في مقارنة النصوص.

فكان أن استعار الناقد العربي المعاصر جملة المناهج النقدية التي جعلها مطية لمقاربة النصوص العربية، وهذا ما خلق إشكالية المنهج عند العرب، حيث إن "مختلف الاتجاهات في نقدنا العربي الحديث والمعاصر - عامة-

هي أصدااء لتيارات نقدية أوربية، وبالتالي فهي أصدااء كذلك لما وراء هذه التيارات من مفاهيم ابستمولوجية وإيديولوجية"¹.

إن ما يحمله المنهج من خلفيات معرفية وإيديولوجية هي وليدة الفكر الغربي الذي شكّل حلقاته عن طريق بناء يستند إلى البيئة الغربية وظروفها، في حين نجد إشكالية انتقاله إلى البيئة العربية قد وُلد عدّة توجهات بارزة، فكان من بين النقاد؛ المرّحب المُعلي من شأن هذه المناهج، وكان هناك الراض لها المنغلق على تراثه، في حين وجدنا توجهًا ثالثًا كان بين بين. وهذا ما أفرز إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر.

الدراسات النقدية وإشكالية المنهج:

تعدّ إشكالية المنهج من أهم ما اعتري النقد العربي المعاصر، كونها ظهرت نتيجة للكّم الهائل من المعارف والتطبيقات والنتائج التي حملتها هذه المناهج دفعة واحدة للبيئة العربية، إذ إن الفترة التي استغرقتها هذه المناهج عند العرب ضئيلة جدًا مقارنة بما استغرقت في بيئتها الأصلية، لذلك فالملاحظ على التّأصيل المنهجي عند العرب في النقد المعاصر كإشكالية أسهم في بلورة عدة وجهات نظر لهذا المنهج، فنجد كثيرًا من النقاد يتناولون النص الإبداعي بالمقاربة تبعًا لمنطلقاتهم الذاتية، والتي تكون في كثير من الأحيان غير محيطية بكل جوانبه، وبخاصة عند بداية الاحتكاك بالغرب، إذ يرى سعيد يقطين أنه "منذ بداية احتكاكنا بالغرب على الصعيد الأدبي ونحن لا نأخذ من النظريات والاتجاهات المختلفة سوى نتائجها، وما فكرنا قط (...) في استلهام الروح العلمية التي يشتغل بها أصحاب النظريات. إن هذا السبيل يمكن أن يقودنا في حال القيام به إلى التفكير في الأخذ بالأسباب العلمية وهي إنسانية إلى تحصيل نتائج مختلفة، بناء على ما يقدمه النص الغربي من خصوصيات هي وليدة المجتمع الغربي"²

وهذا ما زاد من معاناة القارئ المتلقي لهذه الدراسات، إذ أصبح يواجه كما معرفيًا ضخمًا ومعقدًا، دون سوابق معرفية تساعد على فهمها وإدراكها، لتخلق إشكالية تدريس هذه المناهج في الجامعة، إذ وإن كان المدرّس قارئًا يعايش المعاناة التي انعكست عليه مما عايشه النقاد، فكيف يمكن له أن يقدم تكاملًا معرفيًا للمتمدرس؟

إن التهاافت على المناهج الغربية وتطبيقها على النص الأدبي العربي دون تروٍ وتمحيص، أوقع النص في دوامة الغموض، وبخاصة أنه جعل مختبر تجارب لتطبيقات هذه المناهج ونتائجها، فاهتمنا بالمنهج اعتبارًا لنتائجه خلق أزمة للنقد العربي كانت في أساسها عدم الوعي بماهية المنهج، وليس إهمال خلفياته الابستمولوجية فقط، ذلك أنهم كانوا يرون المنهج كأدوات إجرائية أو وسائل تتاح للنقاد من أجل مقارنة النص الأدبي، ولكونه أدوات إجرائية فهو عندهم بمثابة القلب الذي يؤتى به لوضع النص بداخله بغرض تجريبه، ولذلك كانت هذه الدعوة من المظاهر السلبية للانفتاح غير المشروط على الآخر، إذ إن تهاافت النقاد العرب على المنهج واكمه "إهمال الخلفية المعرفية (الابستمولوجية) التي تقف وراءها، بدعوى أنها مجرد إجراءات مستقلة عن الفضاء الفكري الذي نشأت فيه."³

¹ عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)،

المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، 1999م، ط1، ص 56.

² سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2002م، ط1، ص 69.

³ عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر - مقارنة حوارية في الأصول المعرفية، الهيئة المصرية للكتاب، 2005م، دط،

إن هذه الدعوى لا يمكن لها أن تستقيم، وبخاصة أن البيئة التي نشأ فيها المنهج الغربي تعكس مدى ارتباطه بخلفياته الفلسفية والابستمولوجية التي كانت سببا في نشأته، مع أن الكثيرين يعتقدون بأن هذه المناهج لا تعدو أن تكون مجرد أدوات إجرائية "يتوسل بها لتحليل النصوص الإبداعية، متناسيين المضامين الثقافية التي تحملها هذه المناهج، والتي تتلاءم والبيئة الحضارية الغربية التي أفرزتها".⁴ ، لذلك فإن هذه الإسقاطات التحليلية للنصوص الإبداعية العربية كانت سببا في هوة عميقة بين النص ومثليه، إذ لم يقف الأمر عند "حدود استثمار الإجراءات المنهجية في هذا الموضوع، إنما تعداه إلى التطبيق الآلي لكثير من الرؤى والطرائق التي أنتجتها الثقافة الغربية في ظرف معرفي وتاريخي مغاير، مما جعل أمر تطبيقها لا معنى له، إلا في كونها ممارسة تفتقر في كثير من الأحيان إلى الوعي العميق بأهمية وضع أسس متينة لهذا الضرب من النشاط الفكري والمعرفي"⁵

ولعل هذا الانفتاح غير المشروط هو ما جعل الناقد العربي يلجأ إلى استيراد المنهج ويدعو إليه بشكل حماسي، مما جعل الممارسات النقدية العربية الأولى تأتي " في شكل يسمح غالبا بالتلقي ولا يسمح بالمناقشة، وكانت أغلب الدراسات تفتقد إلى المرونة، وكأن النقاد في تطبيقهم للمناهج الأوروبية يطبقون مبادئ منطقية محددة ومصطلحات جاهزة، ظنا منهم أن الأدب يمكن أن يتحول إلى علم صارم، مما أدى إلى التباس الخطاب النقدي لدى المتلقي".⁶ وأثار غموضا في تلقيه لهذا الخطاب، فالمنهج ما هو إلا وسيلة أو طريقة للإجراء، "طريقة في القول أو العمل، طريقة منتظمة ومنهجية لتحقيق شيء"⁷، وعليه يكون التساؤل حول "المنهج في سياقنا الثقافي الراهن (...) لا يزال مفتوحا ومطروحا لم يستفرغ حمولته، ولم ينته إلى قرار"⁸. لتركز أهم مشكلات المنهج في النقد العربي المعاصر في النقاط الآتية:

أنتجت المناهج النقدية المعاصرة لمقاربة النص الغربي، مما يجعل إمكانية مقاربتها لنص آخر مستعصية، إلا عن طريق استنطاق النص بما قد لا يكون فيه، حيث إن بعض المشتغلين على النص الأدبي العربي يجعلونه "كمعمل تجريبي للمناهج النقدية مع أن مآربها هو إضاءة النص، فعدت النصوص الإبداعية حقلًا تجريبيًا لتقديم المناهج الحدائرية، فتحول المنهج من مجرد وسيلة إلى غاية يستدل بالنص على مدى كفايته الإجرائية".⁹ وهذا ما أدى إلى أن يكون "الناقد الميرمج الذي يتبنى المناهج النقدية ويطبقها على النص العربي لا يخدم تراثنا ولا ثقافتنا المعاصرة في شيء، بل هو بهذا التبنّي والتطبيق يغوي ويربك و يبعثر ويهدر ويخرب..."¹⁰، خاصة في ظل الاعتقاد السائد بأن المنهج مجرد أدوات إجرائية مفرغة لا يمكن أن تحمل شوائب تربتها الأصلية وبنيتها الفكرية.

⁴ المرجع نفسه، ص 134.

⁵ عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، ص 55.

⁶ زبيدة القاضي: النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع. تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر 2006م، عالم

الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي. 2008م، ط1، ص 65

⁷ Dictionnaire Encyclopédique : Larousse, librairie Larousse, Edition 1979, Paris, France ; p 909.

⁸ عبد العالي بوطين: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، مجلة عالم الفكر، عدد 1، 2، 32، سنة 1994م، ص 455.

⁹ عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحدائرية في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 134.

¹⁰ إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، نحو قراءة تكاملية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2007م، ط1، ص 183.

تهافت النقاد العرب المعاصرين على الارتداء في أحضان المناهج الغربية دون وعي كاف، أسهم في تشويه النصوص العربية أحياناً، وطمس هويتها أحياناً أخرى، إذ "إن مناهج أغلب الباحثين في شرقنا العربي... مناهج إما غامضة أو محرقة عن أصولها في الثقافة الغربية".¹¹ ، لذلك فالقراءة النقدية مرهونة بعاملين أساسيين هما الرؤية والمنهج النقدي، فالرؤية هي "خلاصة الفهم الشامل للفعالية الإبداعية"¹²، أما المنهج فهو "سلسلة من العمليات المنظمة التي يهتدي بها الناقد، وهو يباشر وصف النصوص الأدبية وتنشيطها واستنطاقها، ويشترط أن يكون المنهج مستخلصاً من أفاق تلك الرؤية"¹³. وهذا ما أدى إلى تعدد الرؤى للمنهج الواحد، وبخاصة بعد نقله إلى الثقافة العربية، لترتبط رؤية الناقد العربي بالمنهج بما يكتسبه من إمكانات معرفية، سواء حول النظريات لهذه المناهج في لغتها الأصلية، أو حول الترجمات المنقولة عنه. إن غياب الوعي بأصول المنهج وخلفياته المعرفية، وفي ظل تطويع النص ليلائم المنهج، أصبحت المقاربات النقدية للنصوص العربية تنفر القارئ منها وتجعله يبتعد عنها، متجنباً غموضها وانغلاقها في منحنيات وبيانات زادت من غربة النص عن متلقيه أكثر مما أسهمت في تقريبه وتجليه.

إشكالية المصطلح

تعد قضية المصطلح قضية قديمة نابعة من العلوم والمعارف الإنسانية، ذلك أن لكل علم مصطلحاته، غير أن علم المصطلح (Terminologie) علم حديث ارتبط ظهوره بظهور علم اللسانيات. حيث يعد علماً يهتم بدراسة الأسس العلمية في وضع المصطلحات.

ولئن كانت الدراسات النقدية قد أثارَت إشكالية المنهج فإن ارتباط إشكالية المصطلح بالنقد المعاصر، بوصفها ثاني الإشكالات راجع إلى قضية المنهج، الذي لا يمكن إفراغه من مصطلحاته، فهي توضحه وتبين أهدافه ومعانيه، ذلك أن لعلم المصطلح مرتكزاته، والتي حددها عبد السلام المسدي في ثلاثة مرتكزات هي: **الثوابت المعرفية**: والتي يقصد بها طبيعة العلاقة المعقودة بين كل علم من العلوم ومنظومته الاصطلاحية، وهي كعلاقة الدال بمدلوله ووجه الدرهم بظهره، و**النواميس اللغوية** وهي اقتضاء تجديد نوعية اللغة التي تتحدث عن قضية المصطلح ضمن دائرتها، وما يختص به من فروق تنعكس على آليات صياغة الألفاظ ضمنها، و**المسالك النوعية** ويقصد بها مجال الاختصاص المعرفي، فلكل حقل معرفي خصوصيته في إنتاج جهازه المصطلحي.¹⁴

ولعل إشكالية المصطلح كانت من أكثر الصعوبات التي تدخل القارئ في متاهة كبيرة، في محاولة منه للقبض على إجراءات المنهج وتتبعها. إذ ومع تبني مقولات الحداثة وما بعد الحداثة سعياً وراء التجديد "ظهرت في نصوص النقد والدراسات الأدبية مصطلحات غريبة جديدة، أخذت بمرور الزمن تتراكم دون أن تلفت انتباه السواد الأعظم من النقاد والباحثين، أو من المؤسسات العلمية اللغوية حتى أصبحت ظاهرة استخدام المصطلحات الحديثة في النصوص، أو في الأوساط الأدبية دون العناية بالبحث عن مضمونها في الإطار الذي نشأت فيه أو الذي تم النقل إليه".¹⁵ وهذا ما زاد من غربة المنهج وصعوبة فهم إجراءاته. خاصة أن مضمون كثير من المصطلحات مرتبط بالفلسفة الغربية وحتى الديانة المسيحية.

11 سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، القاهرة، 2005م، د ط، ص 06

12 عبد الله إبراهيم: الرؤية والاختلاف، ص 54.

13 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

14 يراجع: عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، 1994م، د ط، ص 10.

15 سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، ص 194

ولا تنحصر إشكالية المصطلح النقدي في خلفياته فقط، بل إن استحضاره في المنظومة النقدية العربية مرّ وفق إجراءات زادت من هذه الإشكالية، وبخاصة في مجال التعليم، حيث وفد إلينا عن طريق الترجمة أو التعريب، وكلتا العمليتين أسهمتتا في وضع مصطلحات متعددة ومتنوعة، جعلت المتلقي لها يستشعر فرقا بين المصطلحات وإن كانت لمسمى واحد. مما جعل الترجمة من أسباب إشكالية المصطلح حيث كانت تتم في كثير من الأحيان "دون وعي عميق بالأصول المعرفية والفلسفية والاجتماعية للنظرية المترجمة أو المفهوم المنقول، مما يؤدي إلى فوضى واضحة في ترجمة المصطلحات، نتاج عدم الدقة ونتاج عدم الفهم وعدم شمولية الرؤية"¹⁶.

كان نقل المصطلح النقدي الغربي من منظومته المعرفية إلى الثقافة العربية لمحاولة إيصاله للمتلقي، عن طريق مجموعة من النقاد الذين مارسوا حرية النقل، بما يقتضيه توجههم، أو فهمهم للممارسة النقدية، فالمصطلح الغربي الواحد قدم بأكثر من مصطلح في الخطاب النقدي العربي، فإن كان عبارة عن مصطلح واحد محدد المفاهيم لدى الآخر، فإنه يصبح حين انتقاله للأنا عبارة عن مجموعة من الكلمات تبعا لتوجه صاحب الممارسة، مما أشاع الغموض؛ الذي خيم على خطاب هؤلاء النقاد، بل وأصبح سمته التي لا يتسم إلا بها، ويرجع السبب في ذلك إلى " تنفس المصطلح النقدي المستخدم في تربة غير تربته، وهو إن دل على شيء إنما يدل على الخصوصية الحضارية التي ينتمي إليها المصطلح، وأن تجريد هذا المصطلح من دلالاته التي اكتسبها في بيئته الأصلية أو محاولة نقله إلى الثقافة العربية بكل ما يحمله من زخم فكري يخلق أزمة مصطلحية بين المشتغلين في حقل الدراسات النقدية، فتتعدد الترجمات للمصطلح الواحد وينحاز كل ناقد للمرجعية التي يدين بها، ويبقى الخطاب عائنا بالمصطلحات الغربية فتغيب الدلالة ويشيع الإلغاز فتكون الأزمة"¹⁷.

تظل محاولة نقل المصطلح إلى بيئة غير بيئته إشكالية عويصة إذا ما تمت دون وعي، لأن الانفتاح على الآخر لا تعني طمس الهوية أو التجرد منها، لهذا أجمع النقاد العرب "على وجوب الانفتاح على معرفة الآخر وإنجازاته في مجال النقد، على أنهم يشترطون أن يكون اصطناعنا لها عملا ناتية عن وعي بخلفياته المعرفية وتمثل خصوصيات واقعا فكري والحضاري، حتى تحصل الفائدة المنشودة"¹⁸، ويمكن إدراج أهم إشكالات ترجمة المصطلح النقدي في النقاط الآتية:

"محاولة التعامل الحرفي مع اللغات الأخرى دون الأخذ في الحسبان الشحنة الدلالية والمرجعية التي تميز هاته عن تلك.

التسرع في وضع بعض المصطلحات، ما يفسر التراجع عنها لعدم موافقتها دلالة المصطلح الأجنبي، أو لعدم شموليتها أو لأسباب أخرى، تعدم قابليتها للنحت أو الاشتقاق"¹⁹
كما ترجع الإشكالية إلى النقاد المترجمين من حيث تكوينهم والمدرسة التي يترجمون عنها (فرنسية أو إنجليزية)²⁰

تعدد المقابل العربي للمصطلح الواحد في النقد الغربي، كمصطلح الانزياح وهو ترجمة لكلمة (Ecart) فقاموس جون ديبيوا "يشير إلى أن الانزياح 'حدث أسلوبية' ذو قيمة جمالية، يصدر عن قرار الذات المتكلمة بفعل كلامي

¹⁶ سيد البحراوي: قضايا النقد والإبداع الأدبي، الشركة الدولية للطباعة، مدينة 6 أكتوبر، مصر، 2003م، ط1، ص 34.

¹⁷ عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 279/ 280

¹⁸ محمد الناصر العجمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، كلية الآداب سوسة، دار محمد علي الحامي، 1998م، ط1، ص 496.

¹⁹ السعيد بوطاجين: الترجمة والمصطلح، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009م، ط1، ص 28.

²⁰ يراجع: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يبدو خارقا (transgressant) لإحدى قواعد الاستعمال التي تسمى 'معيارا' (norme) يتحدد ب: الاستعمال العام للغة، المشترك بين مجموع المتخاطبين بها.²¹

غير أنّ هذا المصطلح يتعدد بحسب المفاهيم التي وضعها له النقاد، كل حسب توجهه، فهو يعرف "مثل خطأ مقصود (يرونو)، مجافاة لقواعد اللغة (أو) نحو مضاد (ويليك)، ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا (أو) حالة مرضية للغة (كوهن)، مسافة واختلاف (بارت)، للحن المحبب، كسر المؤلف، اضطراب في نظام اللغة، تواضع جديد لا يفرضي إلى عقد بين المتخاطبين (المسدي)"²². وعلى الرغم من تعدد المفاهيم، إلا أننا نجد هذه المصطلحات تتحدد "بمعارضتها لنظام ما، وخروجها عن النمط المعياري للغة الذي قد يسمى استعمالا عاديا أو دارجا أو شائعا أو عاما أو مألوفًا أو بسيطا أو حياديا أو بريئا أو ساذجا..."²³

وبحسب تعدد مفاهيمه تعدد أيضا من حيث اللفظة ذاتها، فنجد 'عبد السلام المسدي' في كتابه (الأسلوبية والأسلوب)²⁴ يورد كشفا للدوال المعبرة عنه حيث يذكر اللفظة الأجنبية ويقابلها بما ترجمت إليه في العربية مع ذكر صاحب المصطلح، وقد أحصى اثنتي عشرة كلمة. وهذا ما "يوهم القارئ بتعدد في المفاهيم، فليس من اقتصاديات اللغة أن يكون لكل باحث فرد أو لكل فئة صغيرة مصطلحاتها المتعددة والمفهوم العلمي واحد"²⁵.

ولذلك فقد يجد المدرس إشكالية في تعليم هذه المصطلحات للمتمدرس، حيث قد يضطر إلى اختيار ترجمة واحدة لاستعمالها، حتى لو قدم للمتمدرس كل المقابلات العربية لهذا المصطلح، كما قد يجد متلقي المصطلح المترجم صعوبة في البحث عنه في المعجم العربي، إذا ما تم اطلاعه على ترجمة واحدة، فلو كان الانزياح هو ما اطلع عليه كمقابل للمصطلح الأجنبي (Ecart)، فسيبحث عنه في حرف النون من المعجم، لكن لو اختار صاحب المعجم مصطلح العدول بديلا للانزياح فلن يجد المتلقي ما يبحث عنه في حرف النون. مما يؤدي إلى الحيرة والشك. كما أن "التعدد قد يكون إثرائيا إذا أحسن الفهم والتمييز والانتقاء والتوظيف (ولكنّ) سعي الثقافة المنتمية للأقوى في عصر المعلوماتية إلى جذب الثقافات المنتمية للأقل قوة، جعل أبناء تلك الثقافات يتخلون عن أصدتهم المرتبطة بالهوية وبالخصوصية، في مقابل الهرولة نحو سراب توحيد الثقافات."²⁶

إن إشكالية التعدد المصطلحي هي واحدة من إشكاليات النقد العربي المعاصر، التي باتت تشير إلى حجم الأزمة التي يتخبط فيها الخطاب العربي، والتي تظهر جلية في الغموض المسيطر عليه. وهذا "يدل على مدى تأزم هذا الخطاب، ومدى عجز الناقد العربي عن تحقيق أصالته وتمييزه بتأسيس مشروع نقدي يقوم على مراعاة خصوصية الحضارة العربية، متبنيا مشروع ثقافة الاختلاف مع الآخر / الغرب، حتى يتملص من تبعيته."²⁷ وهذا التخلي عن الأصدمة المرتبطة بالهوية، شكّل خطرا على الانتماء العربي، بداية من انسلاخ خطابه النقدي عن أصوله التراثية وارتماؤه في أحضان هوية تختلف عنه. إنه الخطر الذي لم يلتفت إليه من انبهروا بالحدثة

²¹ نقلا عن: يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. دكتوراه دولة في النقد المعاصر. جامعة وهران. 2004-2005 م.

ص 175.

²² عمر أوكان: اللغة والخطاب. إفريقيا الشرق. المغرب. د. ط. 2001م. ص 19.

²³ يوسف وغليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد. ص 175.

²⁴ يراجع عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب. ص ص 100. 101.

²⁵ محمود فهمي حجازي: الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1993م، دط، ص 228.

²⁶ إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، ص 175.

²⁷ عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحدثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 362

الغربية، إذ كان النقل الكامل عنها تمهيدا للتبعية الثقافية وترسيخا لها، وذلك بعد أن عمي الكثيرون ممن يطالبون بنقل مفاهيم الحداثة الغربية ومصطلحاتها إلى الخطاب العربي بكل عواقلها المعرفية.²⁸

وإن كانت ترجمة المصطلح قد أثارت إشكالية تلقيه، فحتى عملية التعريب أسهمت هي كذلك في هذه الإشكالية، إذ وجد اللغويون العرب أنفسهم مضطرين لاستخدام المصطلحات المعربة "لأن مفاهيمها أو تصوراتها لم تقم في أذهان لغويي العرب، ومن العبث فرض المصطلحات العربية التي لا تتناسب والمفاهيم التي تعنيها"²⁹

كما يعد ما يعانيه بعض متلقي المصطلحات الغربية من نقص في اللغة الأجنبية من أسباب ما تعانيه العملية التعليمية من عجز التواصل، حيث إن كثيرا من المتدربين يعانون من التحكم في اللغات الأجنبية، مما يسهم في زيادة حجم الإشكال المتعلق بالمصطلح عامة والنقدي خاصة.

الدراسات النقدية المعاصرة بين الواقع والمأمول

في خضم ما تم تقديمه من إشكالية تواجه الدراسات النقدية العربية المعاصرة، والمرتبطة بالمنهج والمصطلح، يمكن توصيف حال الدراسات النقدية على أنها عانت ولا تزال تعاني من خلط المفاهيم، لذلك فقد كتب النقاد العرب حول هذه الإشكالية وسعى الدارسون إلى تنظيم الندوات والمؤتمرات حولها، سعيا إلى تحديد أسبابها ومحاولة إيجاد حلول لها، ولعل من بين النقاد العرب من كان له نصيب من ذلك هو عبد العزيز حمودة في كتاباته (المرايا المحدبة/ المرايا المقعرة/ الخروج من التيه)، إذ قدم صورة للإشكالات الراهنة التي وصف بها الخطاب النقدي العربي المعاصر، كما نجد عدة دراسات أخرى اهتمت بهذا الموضوع، في سبيل استيضاح المنهج النقدي أو إبراز حقيقته، كدراسة سمير سعيد حجازي "إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، ودراسة عبد الله إبراهيم "معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة"، ودراسة خلدون الشمعة "المنهج والمصطلح" ودراسة " محمد الناصر العجيمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية" وغيرها.

أما واقع هذه الدراسات على المستوى التعليمي، فقد جابه إشكالات أكبر وبخاصة ما نلاحظه على مستوى البحث العلمي في ما يقدم من بحوث جامعية (تخرج، ماجستير، دكتوراه) إذ لا يزال الطالب في دوامة فوضى المناهج وإشكالاتها، فلا يستطيع القبض على المنهج وأدواته، ولا يلمّ بخلفياته المعرفية، بل حتى إن كثيرا منهم يسعى إلى تطبيق منهج على دراسة ما، فقد لأنه دارج، أو هو الموضة في المقاربة، كما يكون لاختيار المشرف على البحث لأصول الدراسة النقدية أثر واضح في تخير العناوين وعناصر البحث، لكن وفق رؤية المشرف لا قدرة الطالب، وهذا ما عمق من إشكالات الدراسات النقدية العربية المعاصرة.

إن الدراسات النقدية العربية المعاصرة، وعلى الرغم مما تخللها من إشكالات، إلا أنها تظل من الدراسات التي تسعى إلى الانفتاح على الآخر في ثقافة نقدية شبيهة بالثقافة النقدية العربية التراثية، التي انفتحت على الآخر الغربي، لكن اختلاف مواقع القوة هو ما أدى إلى أن تنسم أغلب الدراسات الحديثة بالتبعية، وعليه ولتجاوز هذه المشكلة لابد من "التوفر على الدرس الفكري النقدي الغربي لا عن طريق مجرد التلقف لبعض ما ينتج في باب أو آخر، وحسب ما تهدي إليه مصادفات القراءة، لكن استنادا إلى مشروع تحديتي متكامل يسهم في بنائه الباحثون المختصون في مجالات المعرفة النقدية المختلفة وكبار المترجمين"³⁰

كما يجب تبيين الجهد الجماعي والابتعاد عن الجهد الشخصي والفردى، عن طريق إرساء "دعامات العمل الجماعي الذي أضحت الحاجة إلى العمل بمقتضياته لا تستحق التأكيد والاستدلال على مدى فائدتها وجدواها،

²⁸ راجع: عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، 2003م، ص 08 / 09.

²⁹ محمد حسن عبد العزيز: المصطلحات اللغوية، تمام حسان رائدا لغويا، عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب، القاهرة، 2002م، ط1، ص 313.

³⁰ محمد الناصر العجيمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص 741.

لما يوفره تقسيم العمل من ربح للوقت، ولما تتطلبه المباحث الحديثة الموصولة بالذكاء الاصطناعي واشتغال الخطاب والأبواب العرفانية المتصلة بالمنطق والمنقرعة عنه، توحيد الجهود وتوجيهها في مسار مشتركة.³¹

كما علينا تجاوز مفهوم المنهج "على أنه المعرفة الوثوقية التي تغير نفسها دائما لإرضائنا وتوفير الإجابات، إلى مفهوم المنهج على أنه أداة للأسئلة أو الأدلة ذات طابع إشكالي يبلور الأجوبة بدورها إلى أسئلة؟ أو بعبارة أخرى هل تعمل مقارباتها على استنطاق المعرفة الكامنة داخل النصوص لبلورتها ضمن أسئلة جديدة، أم أنها لا تعيد إلا بعث المستهلك / الجاهز / النمطي؟"³² فهل هو " في جوهره أداة un outil ومنظار للكشف والتحليل والمعالجة النقدية وبالتالي أداة موصلة إلى صياغة الأحكام وتشكيل التصورات، أم إنه يتضمن الأحكام والتصورات في ثنانيا إجراءاته ومبادئه؟ ثم هل يكفي أن نكون على معرفة بالمنهج كأداة للدراسة ومنظار للتحليل حتى نوفي النصوص حقها من النقد الموضوعي، أم يجب أن تتوافر لدى الدارس فضلا عن ذلك تقنية (savoir – faire) استخدام المنهج كأداة؟"³³

ليكون انفراج أزمة الدراسات النقدية العربية، بالإقبال على التراث العربي "بفكر متحرر من هاجس الإيديولوجي [...] فنعمل فيه مبضع التشريح العلمي الموضوعي، طمعا في استجلاء آليات تفكيره وطريقة إنتاجه المعرفة، فنذكر بذلك المسافة الفاصلة بين معارفه ومعارف عصرنا ونكتسب -عكس ما يظن- وعيا بحضورنا."³⁴ ذلك أن "مهمة الناقد العربي المعاصر باتت على قدر كبير من الأهمية والخطورة، ولن تمضي في الطريق الصحيحة إلا بالتواصل الفعال مع التراث النقدي بقصد إعادة قراءته. وعلى هذا الناقد أن يستعين بالنقد الغربي كي يكون خطابه حيويا لا خطابا أكاديميا غير قادر على تمثيل العصر، ولا شك في أن الوعي بالتراث والوعي بالحدثة سيجعلان الناقد يعيش عصره وينتج خطابا نقديا تكامليا"³⁵ ليكون خطابا قادرا على مقارنة النص الإبداعي من منطلقاته الفكرية والثقافية وتبعاً لخصوصية بيئته. دونما تيه في خطاب مستورد كانت عواقب مقارنة النص العربي به غير محمودة في كثير من الأحيان.

إن المثاقفة النقدية بالانفتاح على الآخر وفق شروط تحفظ خصوصية النص العربي، الذي أنتج في بيئة وثقافة تختلف من حيث مرجعياتها الفكرية والابستمولوجية، يجعل إمكانية النهوض بنظرية عربية نقدية معاصرة تأخذ ما يسهم في رقيها من الآخر، وتطور ما يوجد في تراثها عن طريق الاستثمار في الجيل الناشئ، وفق أطوار عملية تعليمية تسعى إلى نبذ الصراع، وتكوين جيل من النقاد هم الأول نقد النص العربي في خصوصيته الثقافية.

قائمة المراجع

إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، نحو قراءة تكاملية، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، 2007م، ط1،

³¹ المرجع نفسه، ص 742.

³² خير الدين دعيش: المناهج النقدية ونظرية المعرفة (نحو تأسيس لوعي منهجي)، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس سطيف الجزائر، العدد 07 السداسي الثاني، 2008م، ص 206.

³³ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³⁴ محمد الناصر العجيمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص 742.

³⁵ إبراهيم أحمد ملحم: الخطاب النقدي وقراءة التراث، ص 224.

خير الدين دعيش: المناهج النقدية ونظرية المعرفة (نحو تأسيس لوعي منهجي)، مجلة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس سطيف الجزائر، العدد 07 السداسي الثاني، 2008م.

زبيدة القاضي: النقد العربي المعاصر من النسقية إلى الإبداع. تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي الحادي عشر 2006م، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي. 2008م، ط1.

السعيد بوطاجين: الترجمة والمصطلح، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2009م، ط1.

سعيد يقطين: الأدب والمؤسسة والسلطة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، 2002م، ط1

سمير سعيد حجازي: إشكالية المنهج في النقد العربي المعاصر، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، القاهرة، 2005م، د ط

سيد البحر اوي: قضايا النقد والإبداع الأدبي، الشركة الدولية للطباعة، مدينة 6 أكتوبر، مصر، 2003م، دط.

عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، 1982م، ط2.

عبد السلام المسدي: المصطلح النقدي، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس، 1994م، دط

عبد العالي بوطين: إشكالية المنهج في الخطاب النقدي العربي الحديث، مجلة عالم الفكر، عدد 2، 1، مجلد 32، سنة 1994م

عبد العزيز حمودة: الخروج من التيه، دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة، مطابع السياسة، الكويت، 2003م

عبد الغني بارة: إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر – مقارنة حوارية في الأصول المعرفية _، الهيئة المصرية للكتاب، 2005م، دط،

عبد الله إبراهيم: المطابقة والاختلاف، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، لبنان، المغرب، 1999م، ط1.

عمر أوكان: اللغة والخطاب، إفريقيا الشرق، المغرب، 2001م، دط.

محمد حسن عبد العزيز: المصطلحات اللغوية، تمام حسان رائدا لغويا، عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب، القاهرة، 2002م، ط1.

محمد الناصر العجيمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، كلية الآداب سوسة، دار محمد علي الحامي، 1998م، ط1،

محمود فهمي حجازي: الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 1993م، دط.

يوسف و غليسي: إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، دكتوراه دولة في النقد المعاصر، جامعة وهران، الجزائر، 2004-2005م .

Dictionnaire Encyclopédique : Larousse, librairie Larousse, Edition 1979, Paris,
France